

# تحقيق العبادة لله تعالى وارتباطه بالتوحيد

كذلك أيضاً إذا عرفنا أنه خلقنا لعبادته، فإن العبادة لا تُسمى عبادة إلا مع التوحيد، كما أن الصلاة لا تُسمى صلاة إلا مع الطهارة، فإذا دخل الشرك في العبادة أفسدها، كما أن الحدث إذا دخل في الطهارة أفسدها، إذا أحدث انقضاض وضوء الإنسان؛ فسدت صلاته؛ فعليه أن يجدد الوضوء. فكذلك إذا دعا الله تعالى، ودعا غيره من المخلوقات؛ فقد أفسد عبادته؛ حيث جعل مع الله معبدات أخرى، وذلك هو الشرك الذي يُحيط بالأعمال، قال الله تعالى: { وَلَوْ أَسْرَكُوا لِحِيطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ } . ثم يُقال أيضاً: ما أَقْلَ شَيْءٍ فرضه الله عليك؟ فتقول: إن الله تعالى أرسل رسle بتوحيده وترك عبادة غيره، قال الله تعالى: { وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ مَا عَيْدَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَيَاً أَوْ مِيتاً اهتنتوه؛ يعني ابتعدوا عن عبادته، وابتعدوا عن تعظيمه يأيَّ نوع من أنواع العظيم، فهو هذه هي الحكمة التي حُلِّقَ الإنسان لها: أَعْنَدُوا اللَّهَ وَاجْتَبَوُا الطَّاغُوتَ } . كل الرسل جاءوا أقوامهم بقولهم: { أَعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَبَوُا الطَّاغُوتَ } . أي اتركتوا عبادة الطاغوت، والطاغوت: كُلُّ مَا عَيْدَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَيَاً أَوْ مِيتاً اهتنتوه؛ يعني ابتعدوا عن عبادته، وابتعدوا عن تعظيمه يأيَّ نوع من أنواع العظيم، فهو هذه هي الحكمة التي حُلِّقَ الإنسان لها: أَعْنَدُوا اللَّهَ وَاجْتَبَوُا الطَّاغُوتَ قَمِئْمُهُ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الصَّلَالَةُ } . ثم تُعرف أيضاً أن العبادة التي أ茅روا بها تعمُّ كلَّ قُرْبَةٍ يُتَقَرَّبُ بها إلى الله، فمن تقرب إلى غير الله بشيء من تلك القربات فقد أشرك. فمن دعا غير الله فقد أشرك.

إذا دعا الله ودعا غيره جعل دعاءه مشتركاً، فأصبح مشتركاً، والدعاء يعمُّ النساء؛ الذي هو دعاء العبادة. فإذا مثلاً رأيت إنساناً يَمْسِحُ بغيره جعل دعاءه مشتركاً، وأصبح مشتركاً، وياخذ تبرة يتبرك بها؛ فقل له: الله تعالى يقول: { وَأَنَّ الْمُسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا يَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا } فإذا قال: أنا ما دعوه ما قلت: أنت إلهي، ولا قلت: أنت رب، ولا قلت: يا سيد أرحمني ولكن تعظيمك لم يغتير دعاء. فنقول: إن على المسلم أن يكون دعاؤه كله لله؛ دعاء العبادة، ودعاء المسألة. دعاء العبادة هو: التعظيم، فهذا الذي جاء إلى قبره، وخصوص عنده، وتواضع وتذلل له، أليس يرجوه؟ لا شك أنه يرجوه، وأنه بليسان الحال يقول: يا ولِيَ اللَّهِ إِنِّي جَنَّتُ لِتَشْفِعَ لِي، أو تبارك في عمري، أو تبارك في مالي، أو تصير شافعاً لي، أو تصير نافعاً لي في ديني وفي آخرائي. أليس ذلك عبادة؟ إن هذا دعاء، وإن عبادة؛ لأنه تذلل له، إذاً: فَكُلُّ مَنْ دَعَ اللَّهَ وَشَاءَ اللَّهَ مُحَمَّداً يَعْنِي: ولو دعا محمداً النبي صلى الله عليه وسلم لَمَّا قَالَ لَهُ رَجُلٌ: مَا شَاءَ اللَّهُ وَشَاءَ اللَّهُ وَجَهَهُ { مع أنه في حياته له مشيئة: قوله تعالى: لَمَّا شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمْ } ولكن مشيئته مرتبطة بمشيئة الله: قوله: { وَمَا شَاءَ اللَّهُ وَجَهَهُ } . وهذا لا شك أنه قد أشرك؛ حيث إنه يُتَرَكُ بهذا الولي في نظره، وبهذا المشهد، وتحتَّرَ الصلاة عنده، وتحرى التمسح به، فهذا دعاء لغير الله، شُمَمِيَّهُ دعاءً ولو كان لم يُصْنَعْ. فإذا صَرَخَ وقال: يا ولِيَ اللَّهِ ارْحَمْنِي يا ولِيَ اللَّهِ ارْحَمْنِي انصرنِي على أعدائي؛ فنقول: هذا أيضاً شرك، دعاء ظاهر. كذلك أيضاً: الخوف من أنواع العبادة، قال الله تعالى: { إِنَّمَا دَلَّكُمُ السَّيْطَانُ بِعُوقُّ أُولَئِكَهُ قَلَّا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونَ } والمراد هاهنا خوف السُّرُّ، الخوف الذي في القلب؛ وهو أن يخاف من ميت، أو يخاف من غائب، يخشى أنه إذا لم يُطْهُأ أو لم يُعطِه أن يتسلط عليه. هذا أيضاً من الشرك؛ ولذلك قال: { قَلَّا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ } . وكذلك الرِّحَاءُ. الرِّحَاءُ والخوفُ عبادات الرِّحَاءُ. الرِّحَاءُ والخوفُ عبادات الرِّحَاءُ. إنما المؤمنون بعيدون الله وبخافونه، ولذلك قال تعالى: { أَوْلَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَسْعُونَ إِلَى رَحْمَةِ الْوَسِيلَةِ أَهْمَمُ أَقْرَبُ وَبِرْجُونَ رَحْمَةَ عَذَابَهُ } . أخيراً بأنهم يرجونه وبخافونه، فمن رجا غير الله كما يرجو الله؛ فقد أشرك. كذلك أيضاً المحبة الفليلية، التي هي محبة التعظيم، هي عبادة لا تصلح إلا لله؛ ولأنَّ ذلك في قوله تعالى: { وَمَنْ يَسْأَلُ عَنِ الدِّينِ إِلَّا هُوَ أَنْتَ } . فدلل على أنهم يحبون الله ويحبون غيره، يعني يحبونهم ويحبونه لي يأدي الله ارْحَمْنِي على أعدائي؛ فهذا يعتبر شركاً. الشرك في الدعاء، والشرك في الخوف، والشرك في الرِّحَاء، والشرك في المحبة، والشرك في التوكيل؛ لأن ينوكل الإنسان على مخلوق، بمعنى أنه يَكُلُّ إليه أمره، هذا المخلوق الذي لا يملك ضراً ولا نفعاً، هذا المخلوق الصعب، الذي ليس بيده ضر ولا نفع لنفسه فضلاً عن غيره، فكيف ينوكل عليه إنسان مثله؟! ولذلك جعل الله التوكيل عبادة في قوله تعالى: { وَعَلَى اللَّهِ فَلَيْتَوْكِلُ الْمُؤْمِنُونَ } . وَعَلَى اللَّهِ فَلَيْتَوْكِلُ الْمُفْتَكِلُونَ } . والتوكيل تفويض الأمور إلى الله، والاعتماد بالقلب عليه، والرضا به حسبي وكذا؛ ولذلك يقول الله تعالى: { رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ قَاتِلُهُ وَكِيلًا } أي تَكِيلُ إِلَيْهِ جَمِيعَ حَالَاتِكَ. وهكذا أيضاً من العبادات: الرغبة والرهبة والخشوع، قال الله تعالى: { وَإِلَيَّ أَتَيَ فَارَّهُوْنَ } الرهبة شدة الخوف، وقال: { وَإِلَى رَبِّكَ فَارَّهُوْنَ } الرغبة هي قوة الرجاء، وتعلق القلب بالله تعالى في رجائه. وكذلك من العبادات: الخوف والخشية.

الخشية أشد الخوف؛ ولذلك قال تعالى: { قَلَّا تَخَسُّوْهُمْ وَاحْسَنُونَ } أي لا تخشوا الأعداء، ولا تخشوا المخلوقات، وإنما الخشية التي هي شدة الخوف حتى لله تعالى. كذلك أيضاً من العبادات: الاستغاثة، قال الله تعالى: { إِنَّمَا تَعْبُدُ وَإِنَّمَا تَسْتَغْاثُ } . قيل: إن هذه الآية دالة على تَوْعِيَة التوحيد: توحيد الألوهية، وتوحيد الربوبية، فتوحيد الألوهية: { إِنَّمَا تَعْنِدُ } . وتوحيد الربوبية: { إِنَّمَا تَسْتَعِنُ } هكذا أخير { إِنَّمَا تَسْتَعِنُ } . والنبي صلى الله عليه وسلم قال في حديث ابن عباس { إِذَا سَأَلَ اللَّهَ وَإِذَا اسْتَعْنَتْ فَاسْأَلْنَاهُ } . ويقول الله تعالى: { وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَنُ عَلَى مَا تَصْفِيُونَ } الاستغاثة التي هي طلب العون من الله وحده، وإذا استغاث بالإنسان فإنه يستعين به فيما يقدر عليه من القوة التي أعطاهم الله، مع أن قوه إنها هي من الله وبالله. كذلك أيضاً الاستغاثة عبادة؛ ولذلك يأمر الله بها في قوله: { قُلْ أَعُوْذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ } . فإذا قرأت القرآن فَأَسْبَعَهُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ } . { وَقُلْ رَبِّ أَعُوْذُ بِكَ مِنْ قَمَرَاتِ الشَّيْطَانِ وَأَعُوْذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْصُرُونَ } . { إِنَّمَا يَنْتَرَعُكَ مِنَ الشَّيْطَانِ تَرْعُ فَأَسْبَعَهُ بِاللَّهِ } . التي هي طلب الحماية والحفظ، يشعر الإنسان مثلاً بالخوف من المخلوقات أو بالضرر من آية مخلوق، فلا يجد له مقاوماً ولا ملحاً إلا الله، ف يقول: أعود بك يا رب، أعتص بك، وأستعين بك، وأتحفظ بك، وألوذ بك من أعدائي أن يضروني، فإن نواصيهم بيده: { مَا مِنْ ذَآئِهِ إِلَّا هُوَ أَخْدُ بِتَاصِتِهَا } . يُسلطها على من يشاء، ويزدُّها عن يشاء، فالمستعبد يشعر من نفسه بأنه ضعيف عن مقاومة أعدائه، فيلجأ إلى ربه وينظر بين يديه ويلوذ به، ويطلبه أن يحميه وبعدهم ويحفظه وتحصنه من كيد كل من يريد أن يكده؛ فالاستغاثة عبادة، وأي عبادة. وكذلك الاستغاثة، وهي الدعاء من المكروب؛ ولذلك قال تعالى: { إِنَّمَا تَسْتَغْاثُونَ رَبَّكُمْ } أي تطلبونه في حالة شدتهم؛ ولهذا يُسمى دعاء الله تعالى في تلك الشدة: قَيْسَمَى دعاؤهم استغاثة أي: تستغيث بك نطلبك يا رب أن تعييناً، الغوث الذي هو إزالة الشدة، وإزالة المخاوف، وإزاله الشدائند عندما تحيط بالإنسان الأعداء من كل جانب. كذلك بقية العبادات: الركوع عبادة، والسجود عبادة، والخصوع عبادة، والذبح عبادة، كما في هذه الأيام الذين يذبحون هديهم، أو يذبحون ذبيحة، أو يذبحون جراء، أو يذبحون دم جبران، أو ما أشبه ذلك، أو يذبحون أصاحي، ماذا يقصدون بذبحها؟ لا شك أنهن يقصدون بها التقرب إلى الله؛ ولأنَّ ذلك الهدايا تسمى قرابين. كيف سميت؟ لأنهم يقتربون بها إلى الله، فيقولون: يا رب هذه مما سخرت لنا من بهيمة الأنعام، أنت الذي سخرتها، وأنت الذي دَلَّلَنَا، فنحن تتقدَّبُ بها تعظيمها لك، لا تعظيمها لمخلوق سواك؛ ولذلك يقول ابن القيم رحمة الله: ولأنَّ ذَذِبَةَ اللَّهِ دَلَّلَنَا، فَمَنْ ذَذِبَةَ اللَّهِ شَرَكَ الصَّحِّيَّةَ كُلُّ صَاحِبِ سُنْنَةِ لِلَّهِ دَرْكَ مِنْ أَخِي قَرْبَانَ فَالْقَرْبَانُ هو الأصحي، وهذه الهدايا تسمى قرابين. كيف لغير الله الذين يأتون مثلاً إلى قبر الوالى فلان، يعقرون عنده ناقة، أو يذبحون بقرة أو شاة، أو حتى أية شيء يعظمونه به، يعتقدون بذلك قد عظموا هذا المخلوق الذي لا يملك نفسه نفعاً ولا ضرراً. ورد في الحديث المشهور: أَنَّ رَحْلَا مَرَّ عَلَى قَوْمٍ لَهُمْ صَنْمٌ؛ لهم صنم قبر وهيكلاً ما يتجاوزه أحد حتى يُقْرِبَ له، فأحد الذين مروا عليه قرب ذيابه - فكان ذلك سبباً في أنه لما قتلوا قُتْلَ شهيداً، فدخل الجنَّةَ. وكذلك التَّذُورُ: يقع من المشاهد والقوار، فيقول أحدهم: إذا شَفَقَ مريضي فَعَلَّيَ أن أذبح للفقير شاة، أو أذبح له دجاجة، أو نحو ذلك. أو إذا شَفَقَ مريضي أو رجع غائبي قُعْلَيَ للسيد الفلاني أن أسرح قبره ليلة أو ليالي. أو يقول مثلاً: إذا ربحت في تجاري فَعَلَّيَ للسيد الفلاني، أو القبر الفلاني أن أهريق عليه سمناً، أو نحو ذلك. أليس هذا تعظيمها لهذا القبر. لا شك أن هذا يُعتبر عبادة، فيكون من الشرك والغيار بالله. نعرف أن هذه عبادات الله، التي لا يجوز لأحد أن يصرف منها شيئاً لغير الله. من صرف منها شيئاً لغير الله فقد أشرك بالله، وقد كفر نعمة الله تعالى.